العلاقات الحضارية
بين السودان ومصر في العالم القديم

محمد ابراهيم بكر

قبل أن نبدأ فى تناول موضوع العلاقات الحضارية بين السودان ومصر فى العالم القديم ينبغى أولاأن نتفق على التسميات . فالمنطقة قد حملت خلال تاريخها الطويل عدة تسميات . وقامت فى مناطقها الفسيحة دويلات ودول مختلفة ،وتوالت عليها هجرات عديدة فى فترات متعاقبة من التاريخ غيرت الى حد مامن طبيعة سكانها . كما كانت منطقة النوبة بموقعها الجغرافى الفريدمعبرا للعقائد والأفكار التى تصارعت فيها فخلقت دراما قلما توجد على أية بقعة أخرى من بقاع العالم ، اخرجها التاريخ على مسرح البلادوتبودلت فيها الأدوار . كما اشترك أهل البلاد اشتراكا فعليا فى تشكيل ملامح تاريخهم فأثروا فى الأحداث وتأثروا بها وافسحوا لأيامهم مكانارحبا فى سجل تاريخ الأمم ذات الحضارة العريقة .

فاذا ما تصفحنا المؤلفات التى كتبت عن تاريخ السودان القديم (١) قابلتنا اصطلاحات وأسماء غير محددة تحمل أكثر من معنى ثم انها لاتنطبق تماما على المسميات :

مثلا : اسم النوبة نجده يطلق على المنطقة الواقعة جنوبى الحدود السياسية للجمهورية العربية المتحدة بلا تحديد واضح ، مع العلم ان الحدود السياسية لاتتفق مع التوزيع الاثنولوجى للمنطقة ، ثم أن هذا الاسم نفسه ينقسم بدوره الى قسمين :

١ ـ **النوبة السفلى :** ويطلق على المنطقة التى تمتد تقريبا من الحدود الجنوبية للجمهورية العربية المتحدة حتى منطقة الشلال الثانى على النيل .

٢ ـ **النوبة العليا :** وهى تمتد الى الجنوب من الشلال الثانى حتى دنقله وربمابعد من ذلك جنوبا .

---

١ ـ انظر
R. Herzog, Die Nubier, S. 5/6. Emery, Egyptin Nubia, p. 15/16,

وسكان المنطقة المذكورة الذين تعودنا ان نسميهم النوبيين ، لاتنطبق هذه التسمية عليهم الا منذ القرن الثالث الميلادى اى بعد وصول هجرات النوبيين واستيطانهم بالمنطقة(١)

وفى العالم القديم اطلق على الجزء الشمالى اسم واوات ، والجزء الجنوبى حمل اسم كوش .. ثم طغى اسم كوش فأضحى علما على المنطقة كلها ، بما فى ذلك النوبة وشمال السودان . وهكذا ظهر اسم كوش فى وثائق العالم القديم المصرية منها والآشورية والأثيوبية (٢) . وينبغى الا يغيب عن اذهاننا ان اصطلاح كوشى وكوشيه انما يطلق ايضا على مجموعة اللغات والشعوب السائدة حاليا بأثيوبيا (٣) .

وبالاضافة الى ما تقدم فان الكثير من المؤرخين جانبهم الصواب حين أطلقوا على البيت الحاكم الذى قام وازدهرت حضارة البلاد فى عهده فى نفس المنطقة خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد اسم الاثيوبيين، أولئك الملوك الذين دخلوا مصر أيام عصرها المتأخر واعتبروا مؤسسين للاسرة الخامسة والعشرين فيها ، نقول جانبهم الصواب لأن لفظ اثيوبيا أو الاثيوبيين انما هى التسمية الرسمية الحالية للحبشة وشعبها ، والاصل فيها ان كلمة aithiops الاغريقية معناها ذو الوجه الاسود وكان الاغريق يقصدون بها كل الشعوب ذوات البشرة السوداء بدون تحديد (٤) ، تماما كما حدث بالنسبة للمصادر العربية القديمة فيما بعد ، حين أطلقت اسم السودان والسودانيين على كل المناطق والشعوب الواقعة جنوبى الصحراء الكبرى فى القرون الوسطى . ومن أجل ذلك ومن أجل تبسيط الأمور سوف نحاول ان نجعل اسم السودان

---

١ ـ كان المصريون القدماء يطلقون لفظ (نوب) على معدن الذهب الذى توافر وجوده فى منطقة اسوان وفى النوبة ، ويحتمل ان لفظ نوب هذا هو الاصل فى تسمية المنطقة المذكورة باسم النوبة ، انظر
A. T. Arkell, A History of the Sudan to A. D. 1821, p. 24.

٢ ـ فى حوليات الملك الآشورى اسرحدون (٦٨٠ ـ ٦٦٩ ق.م.) Asarhaddon ظهر اسم كوش على انه « كاش » انظر
W. Budge, The Egyptian Sudan II, p. 39.
وفى النص الاثيوبى الشهير الخاص بالملك عيزانا Aezanes ملك اكسوم Axum اطلق على اسم كوش اسم (كاسو) ، راجع ترجمة النص فى كتاب Arkell, op. cit. p.p. 171/3.
ثم قارن مقالة :
P. L. Shinnie, The Fall of Meroë, in Kush III pp. 82—85.

٣ ـ اطلقت المصادر المصرية القديمة اسم (تاستى) على المناطق الواقعة جنوبى مصر بما فى ذلك اقليم اسوان ، كما تردد اسم « نحسيو » كاصطلاح عام وقصد به كل الشعوب ذوات البشرة السوداء التى تقطن جنوبى مصر .

٤ ـ انظر Arkell, op. cit. p. 24.

يحل محل أغلب تلك التسميات التى أطلقت على المنطقة وعلى أهلها . مع الأخذ فى الاعتبار أن المنطقة كغيرها من المناطق ذات الحضارات القديمة عامة ، لم تسلم من الهجرات العديدة التى تسببت بدرجة أو بأخرى فى تغيير عناصر سكانها .

ومع العلم ان اطار بحثنا لن يتخطى النواحى الحضارية ، تاركا الناحية البشرية المتخصصين فى دراستها :

اتخذت أغلب الحضارات الانسانية الاولى فى العالم القديم من وديان الأنهار مستقرا لها . حدث هذا فى وادى السند وفى وادى نهرى دجلة والفرات ، وكذلك فى وادى النيل .

ويعتبر وادى النيل فى هذا المضمار متحفا كاملا لحضارة الانسان القديم منذ أن بدأ انسان العصور الحجرية القديمة يستعمل عقله ليؤثر ويتأثر بما حوله من مظاهر الحياة المختلفة ، أى منذ الزمن الذى أخذ فيه انسان وادينا يتخذ من الحجر أدواتا يهذبها ليدافع بها عن نفسه وليحصل بواسطتها على صيد البر والبحر ، هنالك أيضا هداه عقله الى اكتشاف النار ثم الى تسخيرها لمنفعته فكانت واحدة من أعظم اكتشافاته .

فى ذلك الزمن السحيق الذى يسميه المؤرخون « عصر ما قبل التاريخ » أى عصر ما قبل ظهور الوثائق المكتوبة يعتمد المؤرخ أساسا على علم الآثار القديمة ليمده بمصادر لتسجيل مجهودات البشر . وقد أثبتت الابحاث التى قام بها العلماء على ضفاف النيل فى مصره وسودانه وحدة الحضارة فى كل من القطرين وذلك بالنسبة لعصور ما قبل التاريخ .

وعند نهاية تلك الحقبة الموغلة فى القدم من تاريخ الوادى أخذ أهل الشمال يسرعون الخطى نحو تطوير حياتهم ، ولقد ساعدهم على ذلك حسن موقعهم الجغرافى وظروفهم المناخية المناسبة . فاستطاع سكان مصر « أو الارض السوداء كما كانوا يسمونها » تمييزا لها عن « الارض الحمراء » أى الصحراء بعد مجهودات مضنية ان يقيموا الحكومة المركزية المتحدة فانتقلوا بذلك الى نمط متقدم من أنماط الحياة المنظمة المستقرة . وكان أن رفع لواء أول حضارة انسانية متقدمة ظهرت فى وادى النيل . وذلك قبل بداية الألف الثالثة قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام (١) ودخلت البلاد عصرها التاريخى منذ ان اهتدى انسان وادى

---

١ ـ راجع W. Emery, Archaic Egypt, p. 42.

النيل الى أروع اكتشافاته عندماتمكن من تسجيل كلماته وأفكاره بالرسم والصورة فظهرت كتابةمصورة كل حرف فيها يعد آية من آيات الفكر الانسانى الرفيع . وهكذااضحت مهمة الباحث الحديث أقل صعوبة فقد أصبح فى الامكان العثورعلى آثار مكتوبة تحكى طرفا من تاريخ الماضى وتعطى صورة عن حياةالناس والحكام حينذاك على ضفاف النيل .

ولقد كان لأرض وادى النيلفى كل من مصر والسودان كل الفضل فى الاحتفاظ بمخلفات الحضارات القديمة بين جنباتها طوال الآف السنين حيث صانها الجفاف منعدوان الزمن وجنبتها رمال الصحراء فى كثير من الاحيان طفيانالأجيال المتعاقبة فما أن شرع العلم الحديث فى الكشف عما تكنه تلكالأرض من أسرار الماضى حتى وجد نفسه أمام متحف حضارى كامل ،ممثلة فيه مجهودات انسان وادى النيل منذ أقدم العصور الى أنأسدل الستار على أيام تلك الحضارات القديمة .

وكان نصيب الفترة التىازدهرت فيها حضارة مصرية قديمة عرفت بالحضارة الفرعونية يتناسبمع انجازات الانسانية فى فترة بلغت نحو الثلاثين قرنا أى منذ ان قامتالحكومة المتحدة فى وادى النيل . الى ان انقضى عصر الحكم الوطنىللبلاد بدخولها ضمن امبراطورية الاسكندر الأكبر فى الثلث الأخير منالقرن الرابع قبل الميلاد . وإنه لمن الثابت تاريخيا أن أهل النوبة وشمالالسودان قد أسهموا كثيرا فى بناء صرح تلك الحضارة .

ولا جدال فى ان حضارة وادىالنيل قديمة وعريقة كالزمان ... حتى انها كانت أيضا كذلك فى نظراليونان والرومان . وقد أقامت مصر حضارتها المتقدمة الثابتة الاركانفى زمن كان فيه العالم القديم من حولها مازال يعيش معظم ساكنيهعصورهم الحجرية القديمة ، فى ذلك الزمن السحيق أرسيت نظم الحياةالاجتماعية والعقائد الدينية والمعاملات ، ووضعت القوانين لاقامةالحدود،وأصبح للحياة العامة تقاليد راسخة . ولعل الباحث فى علوم الفقهالقانونى يجد هنا لبنات ساهمت مستقبلا فى بلورة قوانين الاحوالالشخصية وضبطت المعاملات الدولية .

كما اتخذت الفنون طابعا تميزتبه عن سائر الفنون الأخرى فيما بعد، ووضعت بذرة العلوم والمعارفالانسانية حيث ظهرت مؤلفات فى الطب شخصوا فيها الامراض .ووصفوا العلاج . أما فى الفلك فان

التقويم القبطى من وضعهم وهو يتفق مع السنة الزراعية المصرية ، كما ضبطوا مجرى النيل فاقيمت المقاييس لرصد منسوبه وأقيمت شبكة محكمة للرى . وكانوا روادا فى السياحة واكتشاف الآفاق كما وضعوا أول خريطة من نوعها وكانت لمناجم الذهب فى الصحراء الشرقية (بمتحف تورين) .

ولا شك ان آثارهم الادبية تعد من أروع ما خلفته حضارتهم على الاطلاق . فمنذ أيامهم الاولى والادب الدينى يحتل مركز الصدارة . وقد نعرف أن فكرة البعث والحساب فى العالم الآخر بالاضافة الى فكرة خلود الروح من ابتكارهم فقد ورد فى أقدم نصوصهم الادبية «ان الروح تصعد الى السماء ، أما الجسد فيمكث فى الأرض » .

وكانت لهم نظريات عدة فى أصل هذا الكون وفى نشأة الخليقة . وتقول احدى محاولاتهم فى هذا السبيل بأن العالم يتكون من عناصر أربعة ذكور ومثلهم من الاناث وهى : الماء الأزلى والفضاء اللانهائى والظلام المطبق ثم الهواء أو الروح . وهناك نظرية أخرى تقول إن الاله الاكبر استعمل قوة الكلمة لخلق العالم أى أن الاله أمر بأن ينشأ الكون من العدم فقامت الحياة بكلمة منه .

ولقد تطورت عقائدهم الدينية(١) من دور تعدد الآلهة ـ حيث كانوا يرون فى مظاهر الخلق من حجر وشجر وحيوان وطير وظواهر طبيعية بعضا من آيات الله فقدسوها على هذا الأساس ـ الى ان ظهرت عقيدة التوحيد وعبادة اله واحد رأوا فى الشمس أروع مظاهره ، فاتخذوها رمزا للاله الواحد ، وكانت لهم فى ذلك الاله الأوحد مدائح بلغت حد الكمال النسبى (٢) : يقول المتعبد « تعاليت (ربى) فامتد نورك على الأرض ، أيها الظاهر الباطن . أنت فى قلبى . أنت آية الحياة ، خلقت الارض على هواك أيها الواحد الأحد ، لك الخلق ، لقد قدرت لكل واحد رزقه ومكانه . »

ومن آدابهم التعليمية نماذج رائعة لعلم الاخلاق فمن أقوال (بتاح حتب) أحد حكماء الدولة القديمة الذى عاش حوالى القرن السادس والعشرين قبل الميلاد (الاسرة الخامسة) زمن الملك اسيسى (٣) : ـ

---

١ ـ راجع احمد بدوى ، فى موكب الشمس الجزء الثانى ص ٥٨٧ .

٢ ـ احمد بدوى ، المرجع السابق ص ٥١٦ وما بعدها .

٣ ـ Zbynĕk Zàba, Les Maximes de Ptahhotep, p. 72 nos. 54, 58 et 59.

« تعلم فليس المرء يولد عالما . ولا تفتر بعلمك واستمع الى غير المتعلم (الجاهل) كما تنصت الى اهل العلم فليس للمعرفة حدود . وان الكلمة الطيبة لأخفى من الحجر الكريم » .

كما عرفوا فن القصة والاسطورة والأناشيد الدينية والأغانى ومنها اغانى الغزل : مثال ذلك (١) « لقد أصبح قلبى فى هواك كعود فى مهب الرياح » أو « انها المتعة ان يقترب المرء ممن يحب » . وهناك اغانى العمال أثناء العمل . ولقد عثر على برديه (برديه ارمسيوم) (٢) عليها تسجيل لأدوار مسرحيه (ايزيس واوزوريس) حدد لكل ممثل منها دوره ، وبين السطور وضعت علامات الملحن . وقد ادت هذه البرديه نشأة المسرح الدينى فى مصر القديمة .

كل تلك المنجزات الهائلة ماعدا القليل منها أسدل الستار عنه فى نهاية العصر الفرعونى وتقوقعت الحضارة المصرية فاضحت بالنسبة للعالم الكلاسيكى عباره عن مجموعة طلاسم ، هناك اندثرت المعارف ونسيت اللغه القديمة التى سجل المصريون بها على الآثار أيامهم ونسجت الخرافات والأساطير حول اعلام تلك الحضارة القديمه من اهرام ومعابد وتماثيل ومقاصير ومسلات ونقوش طفت رمال الصحراء حتى أغرقتها فضاعت فى متاهات النسيان .

واستمر الحال كذلك حتى بدأ بزوغ فجر العصر الحديث . ولقد قيل إن نابليون عندما هبط ارض وادى النيل وشاهد عظمة آثارها القديمة توجه نحو جنوده وقال : ان أربعين قرنا من الزمان ترقبكم ، ويقينى إن سحر وادينا العريق قد فعل فعله فى عاهل فرنسا فهو قد تزود فى حملته الى جانب عدة الحرب بعتاد علمى قوامه باحثون فى مختلف فروع العلم الحديث . شرعوا ينقبون عن آثار البلاد ويصورونها ويسجلون وصفها ، وخرجو فى نهاية المطاف بحصيلة نشروها فى موسوعة ضخمة بلغت نيفاً وعشرين سفرا يلحق بها عشرون مجلدا للمصورات . ولا شك أن بلدا كهذا يوصف من أهل العلم فى هذا العدد الهائل من الأسفار الضخمة لابد مستحق كل تقدير .

هناك أخذ الملأ من أهل أوربا الحديثة يهتمون بأرض الوادى وآثارها وتاريخها الموغل فى القدم . وظهرت حينذاك موجة مسعورة اشترك فيها قناصل الدول الغربية وعملاؤهم من تجار الآثار ، هدفها اقتناء الآثار ، وتمكن لفيف من العلماء على رأسهم الفرنسى

---

١ - Knaurs Lixikon der Aegyptischen Kultur, S. 147.

٢ - Helck-Otto, Kleines Woerterbuch der Aegyptologie, S. 290.

شامبوليون من اماطة اللثام عن رموز الكتابة المصرية المصورة (الهيروغليفية) المنتشرة على آثار مصر والسودان بمساعدة كتابات مسجلة على حجر عثر عليه أحد جنود الحملة الفرنسية عند قرية رشيد بالقرب من مصب فرع النيل الغربى فى البحر المتوسط، وكانت الكتابات الموجودة على الحجر الاسود عبارة عن مرسوم أصدره الكهنة لتمجيد أحد خلفاء الاسكندر الأكبر فى مصر بطليموس الخامس (عام ١٩٦ ق . م) وأهمية ذلك ان المرسوم نفسه قد نقش على الحجر بثلاث كتابات اثنتان منها مصريتان أما الثالثة فاغريقية ، وبمقارنة الكلمات الاغريقية التى كانت معروفة للعلماء ، بما يقابلها فى النسخ المصرية القديمة أمكن الحصول على نتائج أكيدة لقراءة وفهم اللغة المصرية التى انتشرت على معظم آثار الوادى فى مصره وسودانه . ومن يومها بدأت الآثار تتكلم لتقص أيامها . وتطلعت الكنيسة الاوربية بكثير من الشك الى نتائج دراسة آثار الوادى فنشب الصراع بين رجال الآثار المصرية وبين رجال الكنيسة لأن هذا العلم الحديث بدأ يثبت ان حضارة الانسان على سطح الأرض عموما هى أقدم بكثير من ذلك التقدير الخاطىء القديم الذى نسجته الكنيسة اعتمادا على عملية حسابية خاطئة تمثلت فى اضافة وجمع تلك الاعمار وعدد السنين التى أوردتها التوراة فى الاصحاح الخامس من سفر التكوين والخاصة بآدم وخلفائه حتى ابراهيم، ومن ابراهيم حتى عيسى عليهم السلام مع اهمال حقيقة ان تكون هناك بين أحفاد كل منهم اجيال طويلة لم تذكرها التوراة ، ربما لعدم أهميتها ونتيجة لتلك النظرة الخاطئة قدرت الكنيسة عمر الانسان على سطح الارض وبدء تاريخ الحضارة عليها فجعلته ٥٥٨٩ عاما فقط .

ولكن علم الآثار المصرية هو الذى ضحك أخيرا عندما سلمت الكنيسة بنتائجه عقب صراع مرير . وبعد ذلك مرت الآثار القديمة لوادى النيل بمحنة حطمت وأصابت الكثير من روائعها على أيدى المغامرين الباحثين عن الثروة وتجار الآثار ليشبعوا رغبة الهواة من بيوتات أوربا المترفة لحب الاقتناء ولتملأ بهامتاحفهم العامة والخاصة . ومن قبل حدثتنا المصادر العربية أن الخليفة المأمون بن هارون الرشيد قد أمر بفتح الهرم الاكبر ظنا منه انه يخفى كنوزا ثمينة (١) . كما روى عن محمد على والى مصر انه كان ينوى هدم الهرم الاكبر نفسه ليتخذ من أحجاره الجاهزة ما يحتاج اليه لبناء القناطر الخيرية على فرعى النيل .

ولم تسلم آثار السودان أيضا من أخطار تلك المحنة (٢) . فلقد

---

١ - I. E. S. Edwards, The Pyramids of Egypt (1961) p. 108.

٢ - Budge, The Egyptian Sudan, Vol. I, pp. 285.

ابتليت آثار السودان فى النصف الاول من القرن الماضى بأحد المغامرين الطليان ويدعى فرلينى الطبيب ،وشريكه الألبانى ستيفانى الذى عمل بالخرطوم فى التجارة ما يزيد عن خمسة عشر عاما حيث ربح مالا أمكن به الاشتراك فى تمويل المغامرة . وهنالك توجه المغامران الى آثار كبوشية حيث موقع العاصمة السودانية القديمة ذائعة الصيت ـ مروى ـ الواقعة بين الشلالين الخامس والسادس وبدأ البحث المحموم عن الكنوز الدفينه ، وشرعا فى تنفيذ خطة مخربة لهدم كل الاهرامات العديدة القائمة هناك لالاعلام من القمة حتى الأساس .

واستعانا بجيش غفير من رجال القبائل وأخذا فى هدم بعض أهرامات المنطقة ولم تثنهما عن عزمهما حرارة الجو أو قسوة الطبيعة الى ان وقعت أيديهما على إحدى الخبايا . وهنالك فقط خشيا على الكنز وعلى نفسيهما فتسللا ومعهما الثروة التى تتكون على حد روايه المغامر فرلينى نفسه من مجموعة رائعة من الحلى الذهبية وبعض الأوانى الثمينه الخاصة بملوك مروى القديمة أو السودان القديم ، وقد وجد الجزء الأكبر منها سبيله الى متحف برلين بالمانيا الشرقية . (١)

وهكذا انتقلت آثار السودان بطريقه أو بأخرى لتعرض فى أقصى متاحف العالم شاهدا على وحدة الحضارة ووحدة المصير (٢) . ان النيل مبعث الحياة فى كل من السودان ومصر كان المعلم الأول لانسان واديه . هدى انسانه الاول فى فجر حضارته الى الاستقرار عندما هيأ له سبل الحياة المنظمة المستقرة ،وأتاه دوما فى ميقات معلوم فأوحى اليه بتنظيم أموره وضبط مواقيته ،ثم هو الذى علمه معنى الوحدة عندما آتاه ثائرا يفيض ليدمر فكان لابد من توحيد الجهود ، وقامت الحضارة المستقرة لانسان وادى النيل فى مصر متمثلة فى دولة متحدة وبدأ العصر التاريخى بقيام عصر الأسرات المبكر . واستمرت الصلات الحضارية بين مصر وشمال السودان متصلة وهناك الكثير من الشواهد التى تتمثل فى العديد من انتاج الصناعات اليدوية المصرية التى عثر عليها عند أهالى النوبة من ذلك العصر ، وعلى صخور جبل الشيخ سليمان الى الجنوب من

---

١ ـ عثر فرلينى الايطالى على الكنز عام ١٨٣٤ داخل هرم الملكة Amanishakhete (عام ٢٥ ق.م. تقريبا) فى مروى القديمة ، ووصلت تلك المجموعة النادرة الى متحف برلين وميونيخ عن طريق العالم الالمانى لبسوس ، انظر
Nubien und Sudan im Altertum, Fuehrer durch die Sonderausstellung des Berliner Aegyptischen Museums (1963) S. 15.

٢ ـ على سبيل المثال هناك آثار سودانية فى كل من متاحف كوبنهاجن والبريطانى وبرلين وبوسطن بالولايات المتحدة .

بوهين بالنوبة وجدت آثار لأحد ملوك الأسرة الاولى مما يثبت وصـــول المصريين الى تلك البقاع الجنوبية فى فجر حضارتهم ، ولقد تم انقاذ هـذا الأثر من خطر مياه الســـد العالى ونقل الى متحف الخرطوم .

ويقينى ان تاريخ عصر الاسرات المبكر فى مصر يحتاج الى الكثير مـن الدراسة وخاصة فيما يتعلق بالصلات الحضارية بين مصر وبين جيرانها فى الجنوب من ذلك العهد . فان الدلائل تؤكد استمرار العلاقات الحضارية بين مصر من جهة وبين جنوب الوادى فى كل مـن اقليم النوبة وشـــمال السودان . والمتعارف عليه ان عصر الاسرات المبكر فى مصر قد دام مـــا يقرب من اربعة قرون ونصف القرن او يزيد ، وهى فترة كافية بلا شك لرسوخ حضارة الوادى فى الشمال ، ثم لوصـــول اشـعاعها الى جنوب الوادى (١) .

ومدينة أسوان قد حملـــت اسمها المصرى القديم هذا « ومعناه السوق » نظرا لكونها مكانا لتجمـع حاصلات كل من مصر وجنوب الوادى حيث يتم البـدل والتجـارة بـين الطرفين أيام الدولة القديمة . وكان يقوم فيهـا موظف يلقب بحاكـم الجنوب للاشراف على كل شـــئون التجارة والبدل وارسال البعثـات التعدينية وسائر بعثات الاستكشاف الى اقاليم النوبة وشمال الســودان القديـم .

وبدون ان نخوض فى التفاصيل ، فإنه لمن المؤكد ان بشـــائر التقدم فيما بعد قد بدأت تظهر فى شـــمال السودان فى أقرب نقطة اتصال مـع مصر ــ أى فى النوبة ــ وبدأت تلك المنطقة تشهد ازدهار حضارات محلية متقدمة نوعا فظهرت فى منطقة النوبة السفلى حضارة المجموعة الثالثة وفى المنطقـة حول كرمة جنوبى الشلال الثانى ازدهرت حضارة كبيرة سميت حضارة كرمة . والمتتبع لاثر انتشار عناصر حضارة شمال الوادى فى منطقة النوبة وشمال السودان أيام الدولة الوسـطى فى مصر (٢٠٦٠ ــ ١٧٣٠ ق . م .) يرى خطوات من التقارب والاقتباس تبـدأ من طبقة الامـــراء المحليين وبعدها تتسع الدائرة لتشمل عامة الناس ، للأخذ بأسباب حضارة الشمال المتقدمة ، كما بدأت الفواصل المصطنعة ، بين الحضـارتين تنهار . وينبغى الاشارة الى ان تلك الحضارات المحلية التى ازدهرت فى منطقة النوبة وفى شـمال الســودان فى أواخر أيام الدولة القديمة والتى امتـدت حتى بداية الدولة الحديثة لم تترك لنـا مصادر تاريخية مكتوبة لعدم معرفة أهلها بالكتابة ، ولذا فان المرجع هو بعض الكتـــابات والنقوش المصريـة بالاضافة الى نتائج علم الآثار الذى قام رجاله بأعمال بطوليـــة مجيدة للكشف عـن المخلفـات الحضـارية وبخاصة فى الفترة الأخيرة ، وعـلى

---

١ ــ Emery, Archaic Egypt, p. 60, pp. 28/29.

سبيل المثال سجلت الآثار المصرية نص رسالة دبلوماسية أرسلها ملك الهكسوس في شمال الوادى إلى الحاكم السوداني في شمال السودان . يحاول فيها أن يستميل الجانب السوداني إلى صفه للقيام بعمل عسكرى مشترك معا ضد حاكم طيبة المصرى وليقتسما بعد ذلك مملكته فيما بينهما . ولكن حامل الرسالة وقع في أيدى القوات المصرية وهو يسرع في دروب الصحراء الغربية . ولا خلاف في أن هذا الطلب من جانب ملك الهكسوس الأجنبى كان سيلقى رفضا باتا من جانب الحاكم السودانى . فلقد ثبت بالدليل القاطع اشتراك قوات مساعدة من النوبة وربما من شمال السودان مع المصريين في شرف الدفاع عن الوادى ضد الهكسوس الغزاة . ولما ولى المصريون أمر المنطقة كلها حتى الشلال الرابع في الدولة الحديثة اهتموا بحمايتها من خطر الاغارات المتتالية تشنها القبائل الرحل الوافدة على الوادى من الشرق والجنوب الشرقى ومن الغرب والجنوب . تلك الاغارات التى كانت تجبر أهالى المنطقة على الضغط على حدود مصر الجنوبية والتعرض للمدن المصرية وللقوافل التجارية ولبعثات التعدين ، ولكى يضمنوا الاستقرار اللازم لقيام حياة عادية بينهم وبين أهالى تلك البلاد اقام المصريون الحصون والقلاع على طول الوادى في المنطقة ، كما نشأت بعد ذلك المراكز الحضارية المتقدمة لأول مرة متمثلة في نمو بعض القرى الصغيرة الى مدن كبيرة على غرار المدن المصرية مثل بوهين وعنيبة وغيرها ، وأقيمت المعابد الضخمة في طول البلاد حتى في المناطق القاحلة تنشر العقائد والثقافة وعناصر الحضارة الأخرى . ولقد بدأت تلك المحلات الحضارية المنتشرة في شمال السودان تغير من طبيعتها مع بداية أيام الدولة الحديثة عندما امتدت ألوية الحضارة المصرية في شمال السودان حتى الشلال الرابع . هنالك فقدت القلاع القديمة أهميتها وبدأت تتخذ شكل المدائن ، كما أنشئت مدن جديدة لتساعد على ازدهار حركة التبادل التجارى بين حاصلات القارة وبين حاصلات مصر . وهكذا ظهرت نبتة كمدينة تقع في أقصى الحدود الجنوبية ، وأقيمت مدينة كوة بمعبدها الشهير ، وأضيفت الى مدينة عنيبة عدة ضواحى ، وفى قرية فرس بنيت مجموعة معابد للملكة حتشبسوت ولتحوتمس الثالث وتوت عنخ آمون وربما أيضا رمسيس الثانى وكلهم من ملوك الدولة الحديثة في مصر وازدهرت بوهين واتسع نطاقها . وعلى طول المنطقة الاستراتيجية الهامة ما بين وادى حلفا في الشمال وكرمة في الجنوب وعلى الجانب الغربى للنيل أقيمت القرى المحصنة في عمرة وصاى وسدنجا وصولب وغيرها لحماية المنطقة من اغارات القبائل الرحل التى كانت تقطن الصحراء الغربية . وفى عمرة والدر وكلابشة أقيمت المعابد التى تم انقاذها أخيرا بعد بناء السد العالى .

ولاشك أن مجموعة المعابد الصخرية فى بيت الوالى وجرف حسين ووادى السبوع والدر وأبى سمبل وكلها تقع فى منطقة النوبة السفلى داخل الحدود المصرية الحالية ، تلك المعابد التى أقامها رمسيس الثانى ، والتى تم انقاذها ضمن حملة انقاذ آثار النوبة التى تعرضت لخطر ارتفاع منسوب المياه خلف السد العالى ، انما تشير الى المحاولات الجدية لنشر أمجاد الحضارة فى ربوع تلك البلاد .

وكان للفنانين والمهندسين والعمال المصريين دور كبير فى نشر الفنون فى ربوع النوبة وشمال السودان فكثيرا ما بعثوا للاسهام فى اقامة العمائر الضخمة وتزيينها ،وتذكر الكتابات المسجلة على احدى اللوحات التى عثر عليها فى كوه (عند نقلة الحالية) الى الجنوب من الشلال الثالث ، ان فنانى منف قد أسهموا فى اعادة بناء معبد كوه الشهير . كما أسهموا ايضا فى بناء وتجميل معبد آمون الرائع الموجود بجبل البركل عند بلدة كريمة الحالية عند الشلال الرابع . ولا شك ان هؤلاء الفنانين المهرة قد ساعدوا على تكوين جيل من الفنانين من أهل البلاد الذين أخذوا فى المشاركة فى تطوير الفنون المحلية مستقبلا .

ولقد قامت تلك المراكز الحضارية المنتشرة فى منطقة النوبة وشمال السودان بدور الوسيط فى نقل نماذج ملموسة من انتاج الحضارة المصرية لتكون فى متناول أهل البلاد ، كما قامت المعابد بدورها الكبير فى نشر الثقافة المتقدمة بينهم . فبالاضافة الى اقامتها فى تلك المناطق البعيدة ، حيث ظروف الحياة القاسية ، فان ادارتها كانت تتطلب اقامة عدد كبير من الفنيين والفنانين والعمال المهرة ومن الكهنة والموظفين والجنود وكلهم ساهم فى سرعة انتشار عناصر الثقافة والحضارة فى ربوع شمال السودان . وكان نتيجة ذلك ان مهمة الباحث الحديث فى مخلفات تلك الحضارة بشمال السودان وراء مصادر تاريخية ، أصبحت فى غاية الدقة نظرا لصعوبة الفصل بين ماهو محلى وبين ما هو مصرى من آثار ذلك العهد ، لأن معظم القوم قد اتخذوا عادات مصرية حتى فى طرائق الدفن ، فبنوا قبورهم على شكل المصاطب والمقابر الصخرية فى مصر ، ثم اتخذوا لهم فوق بعضها أهرامات صغيرة ، كانت هى المثل الاعلى الذى بنيت على نمطه أهراماتهم فى العصور المتأخرة أيام حضارة نبتة ومروى .

واستمرت الحياة فى تطورها السلمى فى شمال السودان بقية أيام الدولة الحديثة من (١٥٦٢ ــ ١٠٨٥ ق.م.) أى مايقرب من خمسة قرون. وأصبحت ادارتها وجيشها على غرار ما كان معمولا به فى مصر .

وأتيحت الفرصة للامراء المحليين أن يسهموا فى ادارة أقاليمهم ، كما تهيأت الظروف لظهور رجال لامعين من أهل البلاد وقادة فى كل المستويات . حتى أن واحدا منهم استطاع بكفاءته أن يرقى الى أرفع منصب فى شمال السودان . فنائب الملك فى كوش ، وهو الاسم الذى اطلق على شمال السودان القديم ، الذى يعنى اسمه حرفيا بالنحسى = « السودانى » يعتبر من أهم الشخصيات التى لمعت فى تاريخ شمال السودان فى العالم القديم . نشأ أصلا وحسب شواهد الأمور فى مدينه عنيبه بالنوبه السفلى ، وكانت حينذاك المركز الرئيسى لادارة البلاد ومقر نائب الملك ، ولقد أدى ذلك الحاكم لوادى النيل خدمة لاتنسى . ففى تلك الفترة من تاريخ الوادى فى أواخر أيام الدولة الحديثة فى نهاية القرن الحادى عشر ق . م كانت أمور مصر تنحدر من سيء الى أسوأ ، عندما تكالبت عليها عوامل الضعف ، وأخذت تهدد من كيان دوله الفراعنه ، هنالك تكاثر أعداؤها واخذوا يطبقون عليها من الخارج ، فبعد ان انتهت تلك الحروب المتصلة المريرة بين مصر وبين دولة الحيثيين فى آسيا الصغرى بتعادل القوتين ، وعقدت اول معاهدة سلام مسجله فى التاريخ القديم فى نهاية القرن الثالث عشر ق . م (١٢٩٥) تعرضت البلاد لشر مستطير أتاها فى شكل هجرات كاسحة من الشرق ومن الشمال ، من البر ومن البحر ، قامت بها شعوب البحر ، قوم يمثلون العديد من الاجناس التى جمعها هدف الغزو والمدمر ، وبعد أن تمكنوا من اكتساح حضارة الحيثيين فى آسيا الصغرى والقضاء على غيرها من حضارات الشرق القديم تقدموا نحو وادى النيل ، وفى نفس الوقت تقريبا اغتنم الليبيون الفرصة وشددوا هجماتهم على غرب الدلتا ومصر الوسطى . وكانت محنة ما بعدها محنة ، وقى الله البلاد من شرها على يدى رمسيس الثالث ومن حوله جند مصر فكسرت شوكة الغزاة وتفرقوا بعد أن حلت بهم الهزيمة النكراء .

الا ان العبء كان أثقل مما تتحمله قدرات البلاد حينذاك . فظهرت عليها بعد فترة وجيزة أعراض الشيخوخة ممثلة فى سوء الاحوال الاقتصاديه ، وكثرت الشكوى من ارتفاع الاسعار والضرائب فأدى ذلك الى اختلال مقدرات البلاد وبدت عليها علامات ضعف لم تعرفها من قبل . ذلك ان الجيش الغفير من عمال البناء فى غرب العاصمه القديمة طيبة ، والذى كان يشرف على تشييد العمائر والمقابر الملكية الضخمة فى وادى الملوك ، بدأ عماله الاضراب وارسلوا فى طلب الوزير وطالبوه بدفع متأخرات رواتبهم وطرد شبح الجوع عن عائلاتهم .

ولما كانت خزينة الدولة وقتذاك خاوية ، فـــان الموقف ازداد سوءا باستمرار العمـــال فى تهديداتهم الى ان شكلوا خطرا فعليا على الدولـــة عندما هاجموا خزائن المعابد ، والى جانب ذلك تألفت عصابات للسـطو على محتويات مقابر الفراعنة فى وادى الملـــوك ونهب كنوزها . وشـكلت المحاكم مرارا للنظر فى قضايا السرقة ولقد وصلت الينا مضابط جلساتهـا الرسمية التى تعتبر صورة فـــذة لدارس تاريخ القانون ، الا ان ذلـك كله لم يوقف من حدة الجرائم لكثرة المشتركين فيها من الكهنة ورجـال الادارة أنفسهم ، ولقد أشيع حينذاك ان عمدة طيبة الغربية له ضـــلع فى عمليات سرقة المقابر الملكية .

ولمـا أصبحـــت الفوضى هى القانون ، شـــاع الفساد والنهب والسلب وعم البلاد كلها طوال تسعة أشهر . هنالك استنجد فرعون مصر رمسيس الحـــادى عشر بنائبه فى شمال السودان ، وكان القائم عليـه فى ذلك الوقت هو المدعو « بانحسى » « أى السودانى » الذى سبق ذكره. فأسرع وحضر بجيشه ونجح فى ضرب مراكز الثورة ، وبعد ان أتم عملـه سلك مسلكا يتسم بنـكران الذات ، فلم يحاول استغلال الظروف الصعبة التى تمر بها مصر باعتباره صـــاحب أكبر قوة موجودة حينئذ . بل عـاد بجيشه الى النوبة وشمال السودان حيث موطنه الأصلى . وهناك أيضـا فى عنيبة اتخذ مقره الأبدى ومازالت آثاره موجودة هناك حتى اليوم .

هذا مثال من أمثلة أخرى ليست بالقليلة لرجال لامعين مـن النوبة أو من شمال السودان ، بلغوا أرفـــع المناصب فى الدولة المصرية القديمة.

وهكذا تقدمت النوبة وشمال السودان طوال أيام الدولة الحديثـة ففدت فى فترة وجيزة من أقـــوى العوامل الموجهة لسياســة الوادى ، بعد ان هيأت حياة الاستقرار النمو السكانى وازدياد الثروة المعدنيـــة والبشرية ، وتقدم الزمـــن وانفصلت كوش أو النوبة وشمال السودان عن مصر نتيجة لسـيطرة الليبيين على جزء كبير من شمال الوادى طـــوال فترة استمرت قرنين من الزمـــان (من ٩٥٠ ــ ٧٥٠ ق.م) . وخلال تلك الفترة صمتت المصادر التاريخية كلية عن الحديث عما دار من أحداث فى شمال السودان . الا أننا نستطيع ان نتبين من خلال نتائج علم الآثـــار استمرار حركة التطور الحضـارى السلمى فى المنطقة الى ان حان الوقت الذى بدأت فيه الآثار تتحدث عـن قيام دولة قوية مقرهـــا نبتة عند الشلال الرابع . تسيطر على كـــل المناطق الواقعة الى الجنوب مـــن الشلال الاول . طابعها العام مصرى الحضارة والثقافة كنتيجة للوحـدة الحضارية القديمة التى استمرت من قبل عشرات القرون . ولكن جوهرها من أهل المنطقة . واستطاعت الاسرة المالكة فى نبتة ان تفسح لأيامها مكانا

مشرفا ضمن مجموعة الاسرات التى حكمت مصر ، حينما سعى ملوكها كاشتا وبعنخى لتحرير شمال الوادى من حكم الليبيين ، وبعد ان أعادوا على البلاد وحدتها استمر ملوك شمال السودان يحكمون الوادى كله من طيبة العاصمة القديمة قرابة قرن من الزمان وقد عدهم المؤرخ المصرى القديم مانيتون ضمن قائمة الأسرات التى حكمت البلاد فاعتبروا ملوك الاسرة الخامسة والعشرين . كما خلفوا آثارا عديدة فى كثير من بقاع الوادى ، ففى معبد الكرنك بمدينة طيبة المصرية ، أضافوا مدخلا ضخما إلى عمارة معبد آمون الكبير ، كما تركوا وراءهم لوحات حجرية سجلت عليها أيامهم عثر عليها فى جبل البركل وفى كوة . هذا بالاضافة إلى تشييد العمائر لآمون فى البركل وفى كوة واخيرا وليس آخرا تلك الاهرامات المنتشرة فى الكرو ونورى وفى البركل ومروى القديمة والتى تشهد عمارتها وكذا نقوشها سواء فى غرف الدفن أو فى المقاصير الملحقة بها ـ بمدى ماوصلت اليه حضارة السودان القديم من تقدم ورقى .

والأمر الذى يبعث على الاعجاب ان المصريين ـ رغم ان ادباءهم ومفكريهم كانوا من أقسى والذع الناس بالنسبة لكل حكم أجنبى الا انهم لم ينظروا أبدا الى فتح ملوك نبتة للوادى كله على انه فتح أجنبى ، بل كان الأمر بالنسبة لهم عاديا على أساس ان الوحدة الحضارية الطويلة بين شمال الوادى فى مصر وجنوبه فى السودان قد قضت أو كادت على كل النعرات الأقليمية .

هذا بالاضافة الى حقيقة أخرى: فلقد استمر حكم هؤلاء الملوك للدلتا والصعيد الى جانب شمال السودان لا يعكر صفوه أحد الى ان جاء الآشوريون من منطقة العراق القديم بجحافلهم التى لاتقاوم. حينئذ اضطر ملوك شمال السودان للتقهقر الى عاصمتهم القديمة نبتة عند الشلال الرابع (حيث أقيمت على أنقاضها مدينة مروى الحالية) وبعد أن قاموا بدور بطولى فى سبيل الحفاظ على وحدة البلاد فضلوا الانتقال الى الجنوب حيث اتخذوا من مدينة مروى القديمة (كبوشية الحالية) (١) ـ بين الشلالين الخامس والسادس ـ عاصمة لهم وذلك فى نهاية القرن السادس قبل الميلاد . هناك استمرت حضارتهم ما يقرب من عشرة قرون أخرى أى حتى منتصف القرن الرابع الميلادى ، حين تدخل ملوك اثيوبيا (اكسوم) فتقدموا الى السودان وتسببوا فى القضاء على حضارة مملكة مروى (٢) . وخلال تلك الحقبة الطويلة توالى على مصر مختلف الغزاة

١ ـ Herodotos von Halikarnassos, Das Ceschichtswerk des Herodotos; im Insil-Verlag Leipzig 1958. II. Buch, Kapitel 29.

٢ ـ الاستاذ هنتزا يعطى عام ٣٢٠ ميلادية كتاريخ تقريبى لسقوط مروى
F. Hintze, Studien zur meroitischen Chronologie, S. 30/31.
P. L. Shinnie, The Fall of Meroë, pp. 82—85. ثم راجع

من فرس ويونان ورومان ، فكـــانوجودهم فى شمال الوادى بمثابة سد أقيم بين شطريه . كما لعبت منطقةالنوبة بوعورة تضاريسها وصعوبـة الملاحة فى نيلها ، دور القلعة الحارسةلحضارة مملكة شـمال السـودان ، فصدت غارات الغـزاة وحالت دونامتداد نفوذهم نحو الجنوب ، وهكذا وجهت مملكة شمال السودان القديموجهها شطر الجنوب بعد ان أغلـق الغزاة الأجانب الباب الشمالى لتطلمنه على الحضارات المتقدمة حـــول البحر المتوسط . ومنذ ذلك الحينبدأت تظهر على حضـــارتها مظاهر أبعدتها تدريجيا عن ركب الحضاراتالمتقدمة .

ويعتقد بعض المؤرخين (١) انتأثير حضارة شـمال السودان قـد امتد حتى بلغ غربى افريقيا حيـثالحضـارة التى قامت فى العصـور الوسطى فيما بعد فى وادى النيجـرفى بنين Benin وفى غانا القديمة وفى غيرها مـن مواطن الحضـارة فىغرب ووسـط القارة قبـل مجىء الاوربيين اليها بعدة قرون .

كمـا كان لتلك الحضـــارةعلاقات مع عـــدد من دول الشرق الأقصى ، ثم مع شعوب أخرى بقارةافريقيا نفسها . وتتضح مدى قوة الصـلات الحضـارية القديمـة بينالسودان ومصر من فحص المخلفات الاثرية لحضارة السـودان فى تلكالفترة . عندئذ نرى كيف ان العقائد المصرية ظلت هى السائدة فترة طويلةحتى بعد ان أغلقت الحدود الشمالية نتيجة الغزو الأجنبى لشمال الواديكما سبق ان قدمنا . فأقيمت المعابد الضخمة للمعبـود آمون رع الذىاتخذ من منطقة جبل البركل عنـد الشلال الرابع وطنا ثانيـا له بعدطيبة . وفى كوة مروى القديمـة ، وفى منطقـة البطانة فى المصـورات الصفراء والنقعة هذا بالاضافة الى تقديس معبودات أخـرى محليـةكالأسد ، كما استمرت اللغة المصرية هى اللغة الرسمية سائدة هناك فترةطويلة أيضا رغم وجود اللغة المرويـة الشعبية .

ولقـد اهتم ملوك السـودانالقديم بأمر الحياة بعد الموت ففكروا كما فعل جيرانهم فى مصر فى مسـألةسلامة أجسادهم بعد الموت كشرط لبلوغ الخلود بعد البعث . فاتخذوامن التحنيط ومن الأدعيات والتعاويذ وكتب السحر المصرية القديمة وسيلةلبلوغ البقاء الابدى (٢) . وعندمـا

---

١ ـ Basil Davidson, Urzeit und Geschichte Afrikas 1961, S. 57/8.

٢ ـ **انظر تابوت الملك** Anlamani **(من ٦٢٣ ـ ٥٩٣ ق.م.) الموجود فى متحف مـروى وكذلك تابوت الملك** Aspelta **(٥٩٣ ـ ٥٦٨ ق.م.) المحفوظ بمتحف بوسـطن وقارن ما عليهما من نقوش دينية .**

شرعوا فى اقامة مقابرهم اختـــاروالها الشكل الهرمى على غرار ما كان معروفا فى مصر منذ أيام الدولـــةالقديمـة أيام بنـاة الاهرام بالجيزة وصقارة وفى غيرها (١) . فهنـــا فىالسودان قرب العاصمة القديمة نبتة فى الكرو ونورى أقدم وأكبر أهرامات موجودة فى السودان .

وتطورت الاهرامات بتطـــورالزمن فصغر حجمها نسـبيا الى ان استعملوا الطوب الاحمر فى بنائهـــاأخيرا كما حدث فى مروى ، وفى الحق ان النظـــرة الفاحصـة لتدرك انالاهرامات المتأخـــرة فى البركل وفى مروى القديمة ذات تصـميم يختلفكثيرا عن نظيرتها السابقة فى الكـــرو ونورى .

فالارجـح ان تلـك الاشـكالالهرمية المدببة لأهرامات السـودان العديدة التى تبلغ نحو ١٥٠ هرمـاهى أقرب الاشـكال الهرمية الى تلك الاهرامات التى كانت موجـــودة فىمدينة عنيبة القديمة بالنوبة السفلى التى اتخذها علية القوم من قبل مقرأأبديا لهم فى الدولة الحديثة . وتلك الاخيرة مستوحاة بالتالى من تصميممقابر رؤساء العمال فى طيبة الغربية بصعيد مصر أيام الدولة الحديثة .

ثم ظهرت فى شـمال السودانمعبودات محلية منها الأسـد الذى كان يكثر وجوده فى المنطقة فى ذلـكالزمن وأقيمـت له المعابـد ونحتت التماثيل خوفا وطمعا فى المصـورات النقعة . كما توصل اهل البلاد الى ابتداع كتابة خاصة بهم اللغة المروية التى كانت لغة التخاطب من قبل ربما منذ أواخـر أيام الدولة الحديثة .واشتقوا بعض حروفها من حروف الكتابة المصرية الشعبية المتأخرة ـالديموطيقية ـ وظهـــرت عناصـر معمـــارية جديدة . وطبعت فنونهمالجميلة بطابع محلى .

واليوم تثبت النتائج المترتبة علىبناء السد العالى مرة أخـرى وحدة المصير بالنسبةلحضارة وادى النيل القديمة فى كل من السودان ومصر . فلقد أصبح الرجل العادى فى أغلببلاد العالم يتحدث عن انقـــاذ آثار النوبة وعن معبدى أبى سمبل ثم عنتضافر الجهـود لانقـاذ ذلك التراث الحضارى لأقدم مخلفات انسانية .وانه لنمـوذج رائع لما يجب ان يكون عليه مفهوم التعـــاون الدولى . اذاشتركت معظم دول العـالم فى انقاذ أهم آثـار منطقة النوبـة التى تعتبر قنطرة للحضارات،ومعبرا للثقافات. فالسـد العـــالى الذى قارب علىالانتهاء ، والذى يعـد معجزة العصر ودليل العزم وقدرة الانسان الحديثعلى تذليل الصعاب ، قد بدأ يكـون

---

١ ـ راجـــع Edwards, The Pyramids of Egypt, p. 250.

بحيرته الصناعية الهائلة التى تمتد خلفه حوالى ٣٠٠ (ثلاثمائة) كيلوا مترا داخل الحدود السياسية للجمهورية العربية المتحدة . وحوالى ١٨٧ (مائة وسبع وثمانين) كيلو مترا داخل الحدود السودانية باتساع قد يصل احيانا الى ٢٥ (خمسة وعشرين) كيلومترا . ونتيجة لذلك بدأ منسوب الماء خلف الخزان يرتفع حتى يبلغ أقصى ارتفاع مقدر له وهو ١٨٢ (مائة واثنين وثمانين) مترا فوق سطح البحر ، مما يؤدى الى غمر كل آثار النوبة حتى موقع سمنة وقمة جنوبا . وقد استطاعت الجهود المشتركة انقاذ أغلب المناطق الاثرية الهامة عن طريق اجراء حفائر منظمة فى كل من النوبة السودانية والنوبة المصرية . ففى السودان تم نقل معابد عكاشة وبوهين وكل من سمنة وقمة . وقد أعد لها مكان فسيح فى حديقة متحف السودان الجديد وانتهى الفنيون فعلا من اعادة بناء معابد فرس وسمنة وقمة وبوهين . كما روعى ان يصمم لها بيئة تشبه الى حد كبير نفس المكان الجاف القديم لحمايتها من الامطار بواسطة مظلة زجاجية متحركة . على ان تقام فى حديقة المتحف قناة صناعية تمثل مجرى النيل فى الموقع الاصلى الذى نقلت منه المعابد المذكورة .

ونقلت الآثار الملونة التى تعد من أقدم المصورات المسيحية من قرية فرس وهى العاصمة المسيحية القديمة وكذلك من دبيرة وغيرها من الاماكن الأثرية الهامة الى متحف الخرطوم .

وقامت البعثات العلمية بمسح المنطقة من الناحية الأثرية ثم نشرت نتائج عملها لتكون فى متناول الباحثين . اما فى الجمهورية العربية المتحدة فقد أجريت الحفائر المنظمة أيضا فى كل مناطق النوبة الأثرية المعروفة ، ثم وقع الاختيار على أربعة مواقع لاعادة بناء المعابد والمقاصير التى تم انقاذها :

الموقع الأول : بالقرب من أسوان وقد اعد لاقامة معبد كلابشة وقرطاسى وبيت الوالى .

الموقع الثانى : بالقرب من وادى السبوع لاقامة معبدى وادى السبوع ودكة .

الموقع الثالث : بالقرب من عمدا لاقامة معبد عمدا ومقبرة بنوت .

الموقع الرابع : تم اختياره فوق الجبل المنحوت داخله معبدى ـ ابى سمبل وذلك لاعادة بناء معبدى ابى سمبل والمقصورة الصخرية

المنقولة من الموقع المعروف باسم جبل الشمس . وكذا معبد ابى عودة الصخرى .

وفعلا فان معظم تلك المعابد قد تم اعادة بنائه فى المواقع الجديدة المختارة . اما بالنسبة لمعبدى أبى سمبل اللذين يقعان الى الجنوب من أسوان بمقدار مائتين وثمانين كيلو مترا فقد كثر الحديث حول انقاذهما ، نظرا لأنهما منحوتان فى الصخر الطبيعى . وعندما عرض هذا الموضوع للبحث عام ١٩٦١ تقدمت بعض الشركات بعدة اقتراحات للانقاذ منها : ـ

١ المشروع الايطالى لرفع المعبدين كل منهما قطعة واحدة بواسطة فصلهما عن الجبل ، ثم تقويتهما وبعد ذلك يتم رفع كل منهما دفعة واحدة بواسطة آلات رافعة قوية . ولقد استبعد هذا المشروع نظرا لكثرة تكاليفه .

٢ ـ المشروع الفرنسى : اقترح ترك المعبدين فى مكانهما الأصلى مع اقامة قبة زجاجية ضخمة على الواجهة ثم عمل مصعد كهربائى ليهبط بالسائحين من أعلى الجبل الى داخل المعبد .

٣ ـ أما المشروع السويدى لتقطيع المعبدين الى قطع ترفع واحدة بعد الأخرى ، ثم يعاد بناؤها من جديد فى نفس الموقع وعلى ارتفاع ٦٤ مترا وبعمق ١٨٠ مترا داخل الهضبة بعيدا عن مجرى النيل القديم . فقد وافقت عليه الجمهورية العربية المتحدة . وقدرت تكاليفه ما بين ٣٢ ، ٣٦ مليون دولار . وتم فعلا نقل المعبد الكبير بهذه الطريقة العملية وأعيد بناؤه وبذلك امكن نقل ١٥٠٠٠ طنا من الأحجار من مكانها . وكان عملا ينطق بمهارة الانسان وصدق عزمه . كما يتوج بالدليل المادى مفهوم التعاون الدولى الرائع .

تلك كانت لمحة سريعة حاولت فيها رسم صورة عن مدى قدم وعمق الصلات الحضارية بين السودان وبين مصر فى العالم القديم .